رثاء نسيب عريضة

هكذا حدث . . . !

للدكتور أحمد زكي أبو شادي

(ألقى فى الحفلة التذكارية للشاعر الكبير المرحوم نسيب عريضة لمناسبة صدور ديوانه اليتيم « الأرواح الحائرة » ومرور أربعين يوماً على وفاته . وقد أقامت الحفلة لجنة أدباء الجالية السورية « والرابطة القلمية » فى نزل تاورز فى بروكلن بمدينة نيويورك مساء الأربعاء ١٥ مايو سنة ١٩٤٦ ، وكانت الحفلة برعاية سعادة الدكتور قسطنطين زريق القائم بأعمال القنصلية السورية فى واشنطن)

ما كان عمرك موهوباً لإنسان ولا لإحساس هذا العالم الفانى
ولا لأرض وأوطان حننت لها فالعبقرية لم تخلق لأوطان
والشاعرية لم تُقصَر منازلها على الحياة ولو من رسم فنان
بل كان عمرك آيات هتفت بها ولم تفسر بإنجيل وقرآن
ولم تكيف بأوصاف تنمقها ولم تقدر بمقياس وميزان
ولم تخصص، فحتى أنت كنت بها فى نشوة بين مشدوه وحيران
ملء الزمان تناجينا وتسعدنا وتحمل النور ميراثاً لأزمان
وتبعث الوحى فينا وهو ينقلنا إلى عوالمَ من حسن وإحسان
تُنثام بالروح أطيافاً وأخيلة علوية ، وجناناً دون جَنّان
أكُنَّ من صنعك الفتان أم نشأت
عن معجزات سمت عن خَلق إنسان؟
لعل فى مقبل الأجيال عارفها
إن فات تعريفُها روحى ووجدانى !

* * *

ياشاعر الهمسات السامیات بنا المبدعات لنا قدسيَّ ألحان
كأنها صلوات لا حدود لها يغنى الوجود بها من قلبك الحانى
جم التواضع ، جم العلم ، يسمده أن لا يميز فى مدح وشكران
وليس يبخس إلا نفسه أدباً كأن أخلاقه أخلاق ديان
وليس يعرف غير الحب منقبة
ويحسب الزهو من أوزار شيطان
يحنو على الشعب فى البلوى ويسعفه
ويستثير شعور الغافل الوانى
ويرفض الضَّيم حتى لو أتى ملك به ، وكان رسالات لأديان
ياحامل العبء فى إيقاظ أمته حملت عبئين بل رزأين فى آن
ما بز آثارَك الغراء مبتدع ولا بنى فوق ما أعليته بانى !

* * *

تركتُ مصر وقلبى ذائب حرَقاً وجئت أطفىء لوعاتى ونيرانى
وكنت جانبت أطياف الربيع بها
وقلت حسبى بكم جنات (لبنان)
ومذ وفدت رأيت الربع مكتئباً كأن أحزانه من لون أحزانى
فلا الجمال قرير فى مباهجه ولا النسيب على روض وأفنان
كأن (آذار) عاداه وباعده وما رأت عينه أفراح (نيسان)
ما للبشاشة قد ماتت بنضرته وللأزاهر ماهشَّت لبستانى؟
وللجداول قد غصَّت بحسرتنا كأنها لم تكن راحاً لريحان
وللنسيم قتيلاً بعد عاصفة وللسحائب فى رعد وإدجان
وللطيور التى كانت مغردة تنقّر العشب فى يأس وإذعان
وللنواطح لم يشمخن فى نظرى وللروائع قد خيَّبن حسبانى ؟
شاهت جميعاً بعينى بعد ماحرمت لقاء من عشت أهواه ويهوانى

* * *

جعلت قلبك قرباناً وتقدمة للناس، والآن ماحبى وقربانى ؟
وما رثائىَ مَن آثاره نَعَم وكل بيت له كنز لديوان ؟
غنيتَ عن كل صيت من عوالمنا وعن بكاء وتمجيد وعرفان
وعشت فينا غريباً ، فلتعدأ لَقاً لموطن الأصل أو للموطن الثانى
فأنت وحدك تدرى الآن ما عجزت
عنه مواكب أذهان وأذمان
وحسبنا ذكريات منك عاطرة وموحيات بأنغام وألوان
وخالدات من الإيمان ناصعة تهدى العزاء وتسعى كل إيمان
من مات موت شهيد لم يمت أبداً وقد تُبدل أبدان بأبدان
ومن تكن نفسه شعراً وفلسفة وبسمة من أغاريد وأوزان
يأبى الإسار وإن وافى مجاملة
من الشموس ، ويأبى العالم الفانى !

(نيويورك) أحمد زكي أبو شادي